حكايات نحبها جميعاً

(١١)

كل باكيةٍ تكذب إلاَّ أم سعد

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

حِكَايَاتُ الأَوائِلِ!!

فَرِحَتْ (نَاهدٌ) كَثِيراً ، وَذلكَ لأنَّها استَطَاعَتْ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّ الإسْلامَ هُوَ المُحرِّرُ الأوَّلُ والأَكبَرُ لِلعَبيدِ ، وأنَّه بِذَلِكَ لَمْ يُميِّز بَينَ عَبدٍ وأَمةٍ..

فكمَا أَنَّه حَرَّر بِلاَلاً وَصُهَيْباً وَخبَّاباً و.. رَضِيَ اللهُ عَنهُم.. ، كَذَلِكَ حَرَّرَ كَثيراً مِنَ الإماءِ كأُمِّ أَيمنَ وَما إلىٰ هُنَالِكَ..

لكِن وَأثنَاءَ بَحْثِهَا في ذَلِكَ وَقعَ نَظَرهَا عَلىٰ كِتَابٍ يَبحثُ فِي سِيَر الأوَائِلِ.. فَتصفَّحتْ بَعضَ عَناوِينهُ ، فَرَأتْ غَالبيَّة الأَسمَاءِ من الرِّجالِ ، وَلمْ تَجِدْ إلاَّ النَّزْرَ اليَسيرَ مِن أَسمَاءِ النِّساءِ!

فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لِمَاذَا هَذا الإِجْحَاف.. أو لأَنَّ المُؤَلِّفِينَ ـ غالبيَّتهم ـ مِنَ الرِّجالِ.. أَم أَنَّ هُنَاكَ قِلَّة ـ فِعلاً ـ مِنَ النِّساءِ في هَذا المِضْمَارِ..؟

و.. لَمَّا عَادتْ إلىٰ البَيْتِ.. وَجَدتْ أَفرادَ عَائِلتَها مُجْتَمِعينَ في الصَّالونِ.. وقدْ رُسمَتْ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ عَلامَاتُ التَّعجُّبِ!

فَمَا كَانَ منهَا إلاَّ أن طَرَحَتْ عَليهِم سُؤَالاً: مَا هُوَ سَبَبُ تَعجُّبكُم..؟!

فَقالَ الأُستاذُ (نَاجِي): إنَّ سَبَبَ تعجّبنَا هُوَ تَصرُّفَاتِك. أَينَ كُنتِ يَا عَزِيزَتِي؟!

وَلَقَدْ وَضَعتْ وَالدتُكِ طَعامَ الغَداءِ.. وتحلَّقنَا حَولَ المَائِدة.. وانتَظرنَا قُدُومَكِ وَلكِنْ دُونَ جَدوَىٰ..

وانتَهينَا مِن وَجْبَةِ الغَداءِ.. وَشرِبنَا الشَّايَ.. وَصلَّينَا الظُّهرَ.. ثُمَّ العَصْرَ.. وَلمْ تَأْتي بَعدُ.. فَمَاذَا حَدثَ مَعكِ يَا بُنَيَّتي؟!

ابتَسَمَتْ (نَاهِدُ) وَقالتْ: لَقدِ اسْتَغرَقتُ في أُمورِ البَحثِ والتَّفْتيشِ عَن مَوضُوعٍ شَغلَ بَالِي كَثيراً ، حتَّىٰ إذَا مَا وَجدتهُ خَطَر فِي بَالِي أمرٌ آخرُ.. وَهوَ البَحثُ عن النِّساءِ الأوَائِلِ..!

هَزَّتْ (مَيسونُ) رَأسهَا وقالتْ: نعَم. سَتُصْبحينَ المُدافِعةَ الأُولىٰ عَنِ المَرأَةِ ، وَسَيقيمُونَ لَكِ حَفلةَ تكْريمٍ.. ويَضعُونَ لَكِ نُصْباً تَذْكَارياً يُخلِّد أَمجَادَكِ..

وَمِنْ خِلالِ ضَحكَاتِ أَفرَادِ العَائِلةِ.. ارتفَعَ صَوتُ (نَاهِدٍ) وَهيَ تَقولُ: وَأَنا لاَ أطلبُ ذَلِكَ أَبداً ، إنَّما أبتَغِي بِعَمَلِي هَذا إرضَاءَ اللهِ تَعالَىٰ ،

وَإظهَارَ الحَقِيقَةِ التي أُهيلَ عليهَا التُّرابُ عَبْرَ القُرُونِ!!

قَالَ الأُستاذُ نَاجِي: أَجلْ يَا عَزيزَتِي فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأبقَىٰ ، وَإذا أَرادَ اللهُ أَمراً كَانَ المُرادُ.. وَنَصِيحَتِي إليكِ أَن لاَ يتسلَّلَ المَللُ إلىٰ نَفْسِك ، وَأن تَستَمرِّي عَلىٰ هَذا المِنْوالِ.. وَأَنْ تَصْبِري عَلىٰ البَحْثِ والتَّفْتِيشِ فِي بُطونِ الكُتُبِ فَذاكَ عملٌ مَبْرُورٌ بإذنِ اللهِ..

وَراءَ كُلّ عَظِيمٍ امْرأَة

اقْتَرَبَتْ وَالدتُهَا مِنهَا وَقَالتْ: يَا حَبِيبَتِي.. احفَظِي مِنِّي مَا حَفِظْتهُ مِن جدَّتكِ عَليهَا رَحمَاتُ اللهِ.. (إنَّ وَراءَ كُلِّ عَظِيم امْرَأةٌ) ، إنَّكِ إذَا فَتَّشْتِ في بُطُونِ الكُتُبِ فَستَجِدينَ أنَّ وَراءَ كُلّ رَجُلٍ ـ بَرزَ في مَجالٍ منَ المَجَالاتِ ـ امرأَة مَا عَظِيمَةٌ

محبَّـةٌ ، هيّـأتْ لـهُ البِيئَـةَ المُنَاسِبـةَ لِيكُـونَ كَذِلكَ ، سَـواءً كَانتْ أُماً.. أَو أُخْتـاً.. أَو زَوْجَةً.. أو ابنَةً..

وَعَلَىٰ هَذا المِنوَال إذا قُمْتِ بإحصَائيَّة لِلَّذينَ بَرزُوا فِي هَذا الوَقتِ المُعَاصِرِ ـ وَفي أَي مَجالٍ من المَجالاَتِ ـ فَستَجدِينَ هَذا المثلَ يَنطَبقُ عَليهِم تَمَاماً.

وَفِي مُنتَصَفِ السَّهرةِ اعتذَرَتْ (نَاهِدٌ) من أَفرَادِ عَائِلتِها قَائِلةً: اسْمَحُوا لِي فإنِّي لاَ أستَطِيعُ السَّهرَ مَعَكُم هَذهِ اللَّيْلَة ، فَأَنَا مُتْعَبَةٌ جِداً.. وسأخلدُ إلى النَّومِ ، عَسَىٰ أن أنطَلِقَ فِي الصَّباحِ إلىٰ المَكْتَبَةِ ، فَأُتابِعَ البَحثَ والتَّفْتِيشَ..

وَ.. فِـي الصَّبـاحِ حَمَلـتْ (نَـاهِـدٌ) مِحْفَظَـةَ أَوراقِهَا.. وَلَبستْ ثِيابَها الجَديدَةَ.. وَدَخَلَتْ إلىٰ غُرفَةِ أَبويهَا تُرِيدُ أَن تودِّعهُم وَتُسلِّمَ عَليهِم..

ولمَّا رآها الأُستاذُ (نَاجِي) قَالَ: لاَ.. ، لاَبدَّ أَنَّ ابنَتكَ قَدْ أصَابها أَمرٌ مَا يا أُمَّ نُورِي..!!

ضَحِكَتِ الزَّوجَةُ وَقالتْ: مَا هُوَ قَصْدُكَ؟ هَلْ تَقْصِد من ذَلكَ أنَّ مَسّاً مِنَ الجِنِّ أَو الإنسِ قَدْ أصَابَها.. أَم ماذَا؟!

قَالَ الأُستاذُ: وَماذَا تَقُولينَ فِي ذَهَابِ (نَاهِد) إِلَىٰ المَكْتَبةِ.. والشَّمسُ لمْ تُشرِقْ بَعدُ؟ وَ.. لمْ تتَناولْ وَجبةَ الإفطارِ بَعدُ؟ و.. إخوَتهَا مَا زَالُوا نَائِمينَ؟!

وانتبَهتْ (نَاهدُ) إلىٰ أَنَّها قَدِ ارتكَبتْ خَطأً ما.. فكيفَ تَذهبُ إلىٰ المَكتبةِ وَقد بَقِيَ علىٰ افتِتَاحِهَا أكثرَ مِن سَاعَتينِ؟!

فَضَحِكَتْ وَهيَ تُقبِّلُ والدَهَا.. ثمَّ قَالتْ: سَأَقومُ بِتَحْضِيرِ وَجبةِ الإفطَارِ علىٰ أَحسَن

مَـا يُـرامُ.. ، ثُـمَّ سَـأذهـبُ بِـرفْقَـةِ وَالـدِي إلـىٰ المَكْتَبةِ ، فَعملهُ قُرْب المَكتَبةِ... وَلعلِّي أَستفيدُ من ذلكَ بأنْ أُوجِّهَ إليهِ بعضَ الأسئلةِ التي تَشغَلُ بَالِي.

وَبالفِعْلِ.. ، تَعاونَتْ (نَاهدٌ) وَوَالدتُهَا فِي إحضَارِ الإفطَارِ ، حتَّى إذَا ما التأَمَ شَملُ العَائِلةِ وَتَنَاولُوا مَا كُتبَ لهم منَ الطَّعامِ والشَّرابِ... ، ثُمَّ حَمَدوا اللهَ علىٰ نِعَمهِ وَآلائِهِ.

..نَظَرتْ (نَاهِدٌ) فِي سَاعةِ اليَدِ.. ثُمَّ قَالتْ لِوالدِهَا: لمْ يَبقَ منَ الوَقْتِ إلاَّ نِصْف سَاعَةٍ ، فَهلاَّ تَوجَّهنَا إلىٰ المَدرسةِ والمَكْتبةِ.. يَا وَالدِي..؟!

هزَّ الوالدُ رَأْسهُ.. وانطَلَق إلىٰ غُرْفَتهِ ، فَلبِسَ أَحسنَ ما عِندَهُ ، وَفِي الطَّريقِ وَجَّهتْ (نَاهدٌ) إلىٰ أَبيهَا جُملةً مِنَ الأَسْئلةِ.. بحيثُ كَانَ يُجيبُ عَنهَا بِدقَّةٍ.

أَوَّلُ من بَايعَ الرَّسولَ ﷺ مِنَ النِّساءِ!!

قَالتْ (نَاهدٌ): وَأثناءَ بَحْثِي عَنِ المُبشَّرينَ بالجَنَّةِ وَجَدتُ هَذهِ العِبارَةَ:

أَوَّلُ منْ ربطَ فَرساً في سَبيلِ اللهِ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ رَضيَ اللهُ عنهُ.

فَقالتْ: لَابدَّ أنْ أَبحثَ عَن تَرجَمةِ حَياةِ المرأَةِ التي رَبَّت هَذا الفَارِسَ المِغوَار.. وَبعدَ التَّفْتِيشِ والبَحْثِ كَوَّنت هذا المُلخَّصَ الرَّائِعَ:

إنَّها (كَبْشَةُ بنتُ رَافِعٍ الأَنصاريَّةُ) رَضيَ اللهُ عَنهَا.. وَهِيَ أَوَّلُ مَن بَايعتِ النَّبيَّ صَلواتُ اللهِ عَليهِ ، وَلمَّا عَادتْ إلىٰ المَدِينَةِ المُنوَّرَةِ جَعلتْ من دَارِهَا مَكَانَ استضَافَةِ سَفِير الرَّسولِ ﷺ ، وَهوَ (مُصْعَبُ بنُ عُمَيرٍ) رَضيَ اللهُ عنهُ.

أَجلْ!

لقَدْ وَقفتْ مَع ابنهَا (سَعد بن مُعَاذ) رَضِيَ اللهُ عَنهُ يُنافِحانِ عَن الدِّينِ الحَنيفِ ، ويذُودانِ عَنهُ ، ويُقدِّمانِ لهُ الغَالِي والنَّفِيسَ:

فَلمَّا كَانتْ غَزوةُ بَدْرٍ ، دَفَعتْ بِأَولادِهَا إلىٰ المَعْرَكةِ.. فَلمَّا رآهمُ الرَّسولُ صَلواتُ اللهِ عَليهِ دَعَا لَهمْ بالبَرَكَةِ واليُسْرِ..

وَلمَّا كَانتْ غَزوةُ أُحُد اسْتُشْهِدَ وَلدُهَا (عَمْرو) مَعَ نَفَرٍ مِن بَني عَبدِ الأَشْهَلِ.. وَلمَّا وَصَلَ الخَبرُ إلىٰ المَدِينَةِ المُنوَّرةِ خَرَجَتْ (أُمُّ سَعدٍ) تَعدُو نَحوَ الرَّسُولِ صَلواتُ اللهِ عَليهِ ، فَلمَّا رآها تَهلَّلَ وَجْهُهُ الشَّريفُ وَقالَ: «مَرْحباً بِكِ يا أُمَّ سَعْدٍ».

فَراحَتْ تُحدِّقُ النَّظَرَ فِيه.. فَقَالَ لَهَا: «مَاذَا دَهَاكِ يَا أُمَّ سَعدٍ؟!».

قَالتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعدَكَ يا رَسُولَ اللهِ هَيِّنَة..

فَعزَّاهَا الرَّسولُ بابنهَا (عَمْرو) ثُمَّ قَالَ لهَا: «يا أُمَّ سَعدٍ! أَبشِري وَبشِّرِي أَهليهِم أَنَّ قَتلاَهُم في الجنَّةِ جَمِيعاً ، وَقَدْ شُفِّعوا فِي أَهلِيهِم».

فَقَالتْ: رَضِينَا يا رسولَ اللهِ ، وَمنْ يَبكِي عَليهِم بَعدَ هَذا؟

فَرَفَعَ رَسولُ اللهِ صَلواتُ اللهِ عَليهِ يديهِ وَقالَ: «اللَّهُمَّ أَذهِبْ حَزَنَ قُلوبهِم ، واجْبُرْ مُصِيبَتَهُم ، وأَحسِنِ الخَلَفَ علىٰ مَنْ خُلفُوا».

وَانطلقتِ السَّيدةُ (كَبْشَة) مَع ثُلَّةٍ من النِّسوَةِ إلىٰ بَيتِ (حَمْزَةَ بن عَبدِ المُطَّلبِ) رَضِيَ اللهُ عنهُ

يَبكِينَ مَا حَدثَ لَهُ.. ، وهُنَاكَ قَالَ لهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَضِيَ اللهُ عَنكُنَّ وَعنْ أَولادِكُنَّ».

أتَعْجَبُون مِنْ هَذَا؟!!

وَدَارَ الزَّمنُ دَورَتَهُ، وَكانتْ غَزوَةُ الخَندَقِ ـ الأَحـزَاب ـ فَقَـالـتْ (أُمُّ سَعْـدٍ) لابنهَـا: الْحَـقْ بِرَسولِ اللهِ يَا بُنَيّ ، فَقدْ ـ وَاللهِ ـ تَأخَّرتَ.

فَنَظَرتِ السَّيِّدةُ عَائشَةُ إلى سَعدٍ ، ثُمَّ قَالتْ: وَاللهِ يَا أُمَّ سَعْدٍ! لَوَدِدْتُ أنَّ درعَ سَعْدٍ أَطولُ على يَدِهِ مِمَّا هِيَ.

فَقَالتْ (أُمُّ سَعْدٍ): يَقْضِي اللهُ مَا هُوَ قَاضٍ.

وَأثنَاءَ الغَزْوَةِ أُصِيبَ (سَعدٌ) بِسَهمٍ قَطَعَ غَالبيَّةَ ذِراعَهُ ، فَمَا كَانَ منهُ إلاَّ أن توَجَّه إلىٰ اللهِ بالدُّعاءِ: ألاَّ يميتَهُ حتَّىٰ تَقَرَّ عينهُ من بَنِي قُرَيظَةَ.

ويَشاءُ اللهُ أَن تَكونَ غزوةُ بَنِي قُريظَةَ بعدَ غَزوَةِ الخَنْدَقِ.. وَبعدَ حِصَارٍ طَويلٍ نَزلُوا عَلىٰ حُكْمِ (سَعْدٍ).

فَحَكَم عَليهِم بِأَنْ تُقْتَلَ رِجالُهم، وتُسبَىٰ نِسَاؤُهُم وَذَرارِيهِم..

بَعدَ ذلكَ انفَتقَ جُرحُهُ.. وَسَقَطَ شَهِيداً، فَمَا كَانَ من (أُمِّ سَعْدٍ) إلاَّ أن بَكَتهُ بُكاءً مَرِيراً، فَلمَّا رَآهَا رَسولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ بَاكيةٍ تَكذِبُ إلاَّ أُمَّ سَعْدٍ».

وَأَردفَ ذلكَ بِقَولِهِ: «أَلا يَرقَأُ دَمعُكِ وَيذهَبُ حُزنكِ؟ فإنَّ ابنَكِ أوَّل من ضَحِكَ الله إليهِ واهتَزَّ لَهُ العَرْشُ».

وَأَثناءَ دَفْنِه في البَقيع.. نَظَرتْ إلىٰ جُثْمَانِهِ نَظْرةَ الوَداعِ وَقالتْ: أحتَسبكَ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ..

ثُمَّ أخرجتْ مِنديلَها لِتمسَحَ دُموعَها ، فَقالَ النَّبيُّ صَلواتُ اللهِ عَليهِ: «وَالذي نَفْسي بِيَدِهِ! لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ خَيرٌ من مَنَادِيلِ الحَرِيرِ».

قَرارٌ صَائِبٌ!!

وَلمَّا عَادَتْ (نَاهدٌ) إلىٰ البَيتِ ، وَأَخبرَتْ وَالدهَا بمَا وَجدتْهُ مِن تَراجِمِ النِّساءِ اللاتي تُوضَعُ أَسماؤهنَّ معَ الأَوائِلِ..

قَالَ الأستاذُ نَاجي: فَماذَا ستفْعلينَ بعدَ ذَلِكَ يَا نَاهِد؟

قَالتْ: لَقدْ قَرَّرْتُ أَن أَجمعَ تَراجِمَ النِّساءِ الأَوائِلِ فِي كِتَابٍ خَاصٍّ ، وَأنْ أُرتِّبهُ حَسبَ الأَحْرُفِ الأَبجديَّةِ..

هَـزَّ الوَالـدُ رأسـهُ وَقـالَ: حَقـاً ، إنَّـهُ قَـرارٌ صَائبٌ.. وَمُفِيدٌ..

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمينَ